كتب بالإنجليزية

عن فلسطين

On Palestine

Noam Chomsky and Ilan Pappe

Chicago: Haymarket Books, 2015. 220 pages.

"يد تمسح زجاجاً ضبابياً يخفي خلفه منظراً، وحركة اليد جيئة وذهاباً لمسح الضباب تسمح بصورة أكثر وضوحاً من سابقتها للمشهد خلفها." تلك كانت إحدى الصور التي أعطاها جان جينيه[1] لمحاولات شرح المشهد الفلسطيني! وذلك هو بالضبط التأثير المتأتي من الانطباع الأولي لكتاب ناعوم تشومسكي وإيلان بابِهْ "عن فلسطين".

يطبع الغلاف والعنوان بقية الكتاب، فالكوفية الفلسطينية بلونَيها الأبيض والأسود تشير إلى الفلسطينيين عامة، والفدائي الفلسطيني خاصة، بدءاً من ثورة ١٩٣٦ حين فرضت الثورة المسلحة على جميع الذكور العرب الفلسطينيين اعتمار الكوفية الفلسطينية كإعلان هوية وانتماء إلى الثورة، علاوة على كونها غطاء رأس للفلاح الفلسطيني، لأن الصراع بين الحركة الوطنية الفلسطينية والمهاجرين اليهود كان ولا يزال يدور حول الأرض الفلسطينية، كما أن الثورة الفلسطينية المسلحة التي تفجّرت في منتصف ستينيات القرن الماضي، اتخذت الكوفية الفلسطينية أيضاً شعاراً لها!

العنوان "عن فلسطين" هو إعلان واضح وصريح عن أنه صراع بين ضدين كالأبيض والأسود/ من دون أي ألوان أُخرى، وأنه صراع بين قوى الاحتلال الخارجي وجموع الذين طُردوا وهُمّشوا ونُفوا من أرضهم وأملاكهم، الأمر الذي دمغ لغة الكتاب الواضحة والمباشرة.

طرح فرانك بارات الذي قام بتحرير الكتاب، السؤال التالي: كيف تصبح ناشطاً؟ ليأتي الجواب بضرورة التعمق في دراسة تاريخ الصراع وأسبابه كي نوازن بين المطروح في وسائل الإعلام المهيمنة، وبين الواقع على الأرض.

ولغسان كنفاني مقولة مهمة في هذا الصدد عن "زمن الاشتباك"، فهذا الزمن يخلق بدوره ديناميات معينة يتعين على الراصد والمحلل الانتباه لها. وإذا وجدنا أن حركة الناشطين الحالية، والتي نتجت منها لاحقاً حركة المقاطعة لإسرائيل (BDS) التي نمت وتطورت بعد العدوانَين على غزة في سنتَي ٢٠٠٩

و٢٠١٤، والاستخدام المفرط للعسكرية الصهونية ضد "أكبر سجن في الهواء الطلق" مثلما يصف بابِهْ قطاع غزة، فإننا نستنتج أن لزمن الاشتباك هذا نتائج كامنة نمت من رحم حركات المعارضة للقصف الهمجي على القطاع.

مؤلفا الكتاب تشومسكي وبابِهْ غنيّان عن التعريف، وهما من أهم نقّاد الصهيونية بصفتها حركة استعمارية تقليدية.

المقدمة هي بقلم إيلان بابِهْ الذي برز كأحد المؤرخين الجدد بعد حرب لبنان التي هي "زمن اشتباك آخر" استُخدمت فيه القوة المفرطة ضد المدنيين. بابِهْ هو الذي طرح سؤال "ما بعد الصهيونية" ليقوم لاحقاً بنقد الصهيونية من أساسها كحركة عنصرية استعمارية، أمّا تعاطفه مع الشعب الفلسطيني فوقوف مع ضحية المشروع الصهيوني المتشكل على أرض فلسطين، وهو ما يظهر في كتابه "التطهير العرقي في فلسطين"[٢] لناحية تأكيد الرواية الفلسطينية بشأن النكبة، وتقديم الأدلة الحسية على ذلك عن طريق استخدام أرشيف الهاغاناه بعد الإفراج عنه أمام البحّاثة، وملخص ذلك أن الفلسطينيين لم يتركوا بيوتهم وأرزاقهم في فلسطين طوعاً في سنة ١٩٤٨، أو تلبية لنداء الحكومات العربية، وإنما هُجّروا وطُردوا منها بحسب خطة "دالت"، أو النسخة الرابعة للخطة الأصلية التي وُضعت في ثلاثينيات القرن العشرين من طرف قيادة الحركة الصهيونية في حينه.

تحت عنوان "المحاورات القديمة والجديدة"، يصف بابِهْ العملية السلمية التي تجري على أرض فلسطين بالمعجزة الطبية التي ماتت ويتمّ إحياؤها عدة مرات، ويتساءل عن ماهية التحديات والشروخ الجديدة التي تحدث في حركة السلام الراهنة، والاختلافات الجذرية مع التحرك في المسيرة السلمية الحالية التي يوضح بابِهْ أن هدفها النهائي هو "تأبيد الوضع الراهن" من خلال إبقاء السيطرة على أرض الضفة وغزة، وضمّها إلى إسرائيل الكبرى من دون إعطاء سكان هذه الأرض حق المواطنة. ويوضح بابِهْ أيضاً أن الكيان الصهيوني استطاع أن يغيّب هذا الموضوع كجزء من خطته/ خطيئته للسيطرة على الأرض من دون السكان الأصليين، وينطلق من هنا إلى قراءة تاريخ الصراع بالعودة إلى نقد الصهيونية والكيان الإسرائيلي ككيان استعماري استيطاني، الأمر الذي يتطلب لغة جديدة لتناول الصراع الدائر على أرض فلسطين والدعم الدولي المصاحب لما يسمّى "المسيرة السلمية" الحالية. وينطلق بابِهْ كذلك من أن قصة فلسطين من أولها إلى الحاضر هي قصة عادية عن الاستعمار الاستيطاني والطرد الممنهج، لكن العالم يتعامل معها على أنها شديدة التعقيد ومتعددة الجوانب وصعبة على الفهم، وهو ما يُعدّ نجاحاً لإسرائيل بمساعدة حلفائها في بناء تفسير شديد التعقيد، ذي جوانب وطبقات متعددة، ويصعب فهمه إلاّ بواسطتهم، وبما يجعل أي تدخل خارجي متهماً بالتبسيط في أحسن الأحوال، أو يتم إطلاق صفة اللاسامية عليه

في أسوأ الأحوال. ويؤيد بابِهْ إدوارد سعيد في مسألة "الحق في الرواية"، والذي دعا الفلسطينيين بها إلى دفع نضالهم في اتجاه حقل الطرح التاريخي وحق التمثّل أو الرواية التاريخية، ورأى أن ميزان القوى السياسي والاقتصادي والعسكري لا يمنع المغلوبين من طرح روايتهم عبر إنتاج معرفي.

يوضح بابِهْ أن قاموس معسكر السلام التقليدي (الحالي) ينطلق من إيمان ديني بحل الدولتين عن طريق قسمة أرض فلسطين التاريخية بإعطاء إسرائيل ٨٠٪، والفلسطينيين ٢٠٪. ويذكر أن هذا القاموس / اللغة ساعد الدبلوماسيين والسياسيين الغربيين كي يبقوا غير فاعلين في مواجهة القمع الإسرائيلي. فعبارات مثل "أرض لشعبين" و"الحاجة إلى وقف العنف على الجهتين"، جاءت كلها من النسخة الحديثة لكتاب "١٩٤٨" لجورج أورويل،[٣] ويستخدمها أحياناً بعض ناشطي السلام.

لكن بحسب بابِهْ، فإن هذه اللغة باتت تفقد معناها في عالم الناشطين، منذ ظهور حركة المقاطعة (BDS) والدعوة إلى دولة واحدة، فضلاً عن بروز تيار سلام غير صهيوني في الكيان الصهيوني ضد الفصل العنصري، "لأن الفصل العنصري أصبح موضوع القضية الفلسطينية"،[٤] وهو ما استتبع دراسة مقارنة بين حالتَي نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وإسرائيل / فلسطين ضمن نموذج الاستعمار الاستيطاني. ويشير بابِهْ إلى أن استخدام هذا التعريف أصبح عادياً في الأوساط الأكاديمية لدى تناول الوضع الفلسطيني، الأمر الذي يسمح، في رأي بابِهْ، بمواجهة القرارات الصهيونية في سنة ٢٠١٠، والتي تطالب السكان الفلسطينيين في الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، بالولاء للدولة اليهودية. ويرى بابِهْ أن "التطهير العرقي ليس موجهاً ضد العرب فحسب، بل أيضاً ضد ملايين اليهود الذين جُلبوا من الدول العربية والإسلامية، فهم إن أرادوا أن يصبحوا جزءاً من الحلم اليهودي، يتعين عليهم نزع السمات العربية عنهم كاللغة وغيرها من العناصر التي تشير إلى أصولهم. أمّا الخيار الثاني، غير الطرد، فهو منعهم من التحرك."[٥] إن نموذج التطهير العرقي يشير إلى أن دولة إسرائيل هي دولة عنصرية، وإلى ذوبان الخط الأخضر الذي كان يفصل بين الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، وتلك المحتلة منذ سنة ١٩٦٧.

تقترح المقاربة الجديدة إذاً، إنهاء استعمار إسرائيل لفلسطين، وإحلال الديمقراطية مكان النظام الإسرائيلي القائم، ولهذا فإنها لا تستهدف سياسات النظام فحسب، بل أيديولوجيته أيضاً. ويشرح بابِهْ أنه من هنا يأتي رفض النظام الحالي عودة اللاجئين إلى أرضهم، بينما يؤيد الناشطون الجدد كلياً حق اللاجئين في العودة إلى قراهم، ويلاحظ أن عناصر هذا الطرح موجودة في الميثاق الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية لسنة ١٩٦٨، فضلاً عن أدبيات التنظيمات الفلسطينية

اليسارية وحركة الأرض وأبناء البلد في الداخل.

اللغة / القاموس الجديد الذي يقترحه بابِهْ يتناول ماضي الصراع للوصول إلى الحاضر واقتراح خطة عمل للمستقبل، والنظر إلى الصهيونية كحركة استعمارية تنتمي إلى **الماضي الاستعماري**، كما أن إعادة تأكيد معادلة "الصهيونية كاستعمار" إنما هي عملية نقدية تشرح السياسات الإسرائيلية التهويدية داخل إسرائيل ذاتها، والاستيطان في الضفة الغربية.

إن الدراسات العلمية التي تقارن سياسات التمييز العنصري في جنوب أفريقيا بتلك الممارسة في إسرائيل آخذة في الظهور. فمصطلح "دولة الفصل العنصري في إسرائيل"،[٦] أشار إليه بحّاثة وعلماء مثل يوري دافيز مبكراً، والذي اعتبر في سنة ١٩٨٠ أن قانون أراضي إسرائيل، والإجراءات القانونية ضمن الخط الأخضر، هما نوع من التمييز العنصري، كما أن أبحاثاً لاحقة سلطت الضوء على المسائل المشابهة أو تلك المختلفة. ويلفت بابِهْ النظر إلى أن تغيير النظام في جنوب أفريقيا حدث بسبب الضغط الخارجي، فضلاً عن نضال المؤتمر الوطني الأفريقي، وهكذا ظهرت حملات BDS من داخل المجتمع المدني الفلسطيني للضغط على إسرائيل كي تلتزم بحقوق الإنسان للفلسطينيين أينما يكونوا.

ويشدد بابِهْ على ضرورة وصف ما جرى للفلسطينيين في سنة ١٩٤٨ بأنه جريمة، وليس نكبة أو مصيبة فقط، ويقول إن نموذج التطهير العرقي يدل بوضوح على وجود ضحية ومعتدٍ، والأكثر أهمية، على ميكانيزمات للحل، ويوضح العلاقة بين الفكر الصهيوني والممارسات والسياسات السابقة واللاحقة لإقامة دولة يهودية بالاستيلاء على أكبر قدر من أرض فلسطين التاريخية، مع أقل عدد من الفلسطينيين. إن الرغبة في تحويل فلسطين المختلطة عرقياً إلى فضاء نقي عرقي كان ولا يزال في صلب الصراع الذي استفحل، والذي راقبه العالم من دون أن يفعل شيئاً، وأدى في المحصلة إلى طرد ٧٥٠,٠٠٠ شخص (شكلوا نصف عدد السكان في حينه)، وإلى تدمير أكثر من ٥٠٠ قرية، وهدم دزينة من البلدات.

أمّا عن الدور المطلوب من الناشطين حالياً فيرى تشومسكي أن "عليهم أن يسألوا أنفسهم: ما هي الأمور التي تساعد الفلسطينيين، وليس الأمور التي تجعلنا نشعر بتحسن؟ إذ إن علينا دائماً التفكير في الضحايا."[٧]

يدعو بابِهْ إلى وصف إسرائيل بدولة استعمار ودولة تطهير عرقي، وإلى "الاعتراف بأن التطهير العرقي هو جزء لا يتجزأ من المجتمع اليهودي في إسرائيل، وأنه أصبح مكوناً جينياً للكيان الصهيوني"،[٨] الأمر الذي يقود إلى ثلاثة مداخل لتشكيل المستقبل: إزالة الاستعمار؛ تغيير النظام؛ إقامة الدولة الواحدة. وكان تشومسكي أول مَن لاحظ أنه لم يكن مطلوباً من عملية السلام أن تصل إلى مكان ما، وإنما القصد هو الإبقاء على واقع لا يقود إلى أي حل؛ معادلة

استخدمتها إسرائيل لسرقة مزيد من الأراضي، وإنشاء مستعمرات جديدة وضم مناطق أُخرى، أي المطلوب أن يكون الوضع القائم هو الحل.[٩] إن أكثر ما أساء إلى "العملية السلمية"، هو نموذج رمي المسؤولية على طرفَي النزاع استرضاء لإسرائيل، وفي الوقت ذاته الطلب من الشعب الفلسطيني الإذعان للاستعمار الصهيوني.

ورداً على سؤال من نوع: هل من ربيع إسرائيلي ممكن؟ في الوقت الذي كان العالم العربي يشهد ما أُطلق عليه "الربيع العربي"، يوضح تشومسكي أن هناك توجهاً قوياً في الأعوام الأخيرة في الكيان الإسرائيلي نحو اليمين، وعقلية تعمل على "جر العربات إلى الوسط، مثلما جرى في جنوب أفريقيا قرب النهاية." فهناك شيء شبيه بـ "العالم يكرهنا لأنهم جميعاً لاساميون. لهذا نفعل ما نريد. ليس علينا لوم أبداً، بل اللوم كله يقع على الآخرين." ويشير تشومسكي إلى أنه خلال عملية "الرصاص المصبوب" في سنة ٢٠١٤ في غزة "جلس المتنزهون (الإسرائيليون) على تلال الشاطئ يهللون لمنظر القذائف تهبط على غزة من كل حدب وصوب"، مشدداً على أن "هذا هو ما بعد البذاءة والفحش." ويعتقد تشومسكي أن المجتمع الإسرائيلي يتجه إلى أن يكون مجتمعاً انتحارياً![١٠]

في المحصلة، نرى أن هذا الكتاب يشكل مدخلاً مهما لكل مهتم بالبحث عن خيارات قديمة / جديدة للقضية الفلسطينية في ضوء تعثّر وتجميد "العملية السلمية".

ولابد هنا من استحضار ذكرى أحد مستنيري القضية الفلسطينية الدكتور فايز الصايغ (عندما كان ممثلاً للوفد الكويتي في الأمم المتحدة)، والذي استطاع في أوائل السبعينيات استصدار قرار من الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية حركة عنصرية.[١١]

إن دعوة بابِهْ إلى اعتماد النموذج الجنوب أفريقي جديرة بالتفحص والنقاش، وهي مهمة القوى الحية للشعب الفلسطيني والقوى العالمية المساندة له.

نقطة أخيرة لا بد من الإشارة إليها، وهي أن الكتاب يغفل الصراع الدائر الآن في المجال العربي والتدخلات الإقليمية والدولية، وأهمّها الصراع على سورية، إذ لا شك في أن ذلك كله سيكون له تأثير في القضية الفلسطينية.

سهير حداد
باحثة فلسطينية